

يوم سألني حاجز النظام: إنت مع مين نصره أو داعش؟

Author: Ghalia Eid

الكاتب: غالية عيد

يشكل الباص الصغير الذي يقطنني أنا وزميلاتي المعلمات مجتمعاً صغيراً يضم المؤيدات للنظام والمعارضات والحياديات خوفاً من الجميع، وهذا يفرض حذراً في الحديث الذي يقتصر على شؤون المطبخ فهو النقاش الأقل تطرفاً للسياسة. نمّر في طريقنا للخروج من إدلب بثلاثة حواجز للنظام ومثلها للثوار حيث لا يبعد آخر حاجز للنظام عن أول حاجز للثوار سوى ٢ كيلومتر..

في رحلتي هذه عادة ما التزم الصمت خلال الحوار مع عناصر حواجز النظام. فوجود عدد من الإناث يفتح شهية الجنود لاختراع الأسئلة "بطعمة و بلا طعمة". وذلك برغم كل ما يتاح لهم من طرق لتفريغ هذه الشحنة بعدما أصبح منظر العساكر والشبيحة بصحبة الفتيات مألوفاً في كل مكان. وانتشرت قصصهم ومغامراتهم الجنسية لتتخطى حدود المدينة إلى المناطق المحررة. الأمر الذي أثار غضب ونقمة الثوار على كل من يسكن في المدينة وبالأخص النساء، وأعقب ذلك ظهور فتاوى عدة من شرعيي الفصائل المختلفة بتكفير أهل إدلب أو اعتبارها أرض كفر.

كنت وخلال رحلات الباص قد اعتدت على حمل مسبحة رقمية في إصبعي لاستغلال الطريق في الذكر والاستغفار، وهي عبارة عن قطعة صغيرة من البلاستيك لها شاشة تظهر عدد التسيحات وزرير للعد تليس في الإصبع .

في إحدى المرات وفي طريق العودة من المدرسة إلى البيت توقفتنا على حاجز النظام المعروف بـ "الكونسروة" وكانت أعداد السيارات التي تقف أمامنا كبيرة والطابور طويل. وعادة ما يتجمع معظم عناصر الحاجز في بدايته للتفتيش، وينتشر القليل منهم بين السيارات لتنظيم الدور. كنا نتحدث أنا وزميلاتي في السيارة وكنت أجلس في الصف الأمامي خلف السائق بجانب الباب مباشرة. كنت مشغولة بالحديث وأستند بظهري على النافذة، وفجأة سمعت صوت الباب يفتح، فإذا بأحد عناصر الحاجز يتقدم نحو سيارتنا ويفتح الباب، وعلى ما يبدو كان يراقبنا من بعيد ونحن داخل السيارة. كان شاباً في العشرينات من العمر، متوسط القامة عريض الكتفين له لحية خفيفة و ملامحه جذابة.

فتح الباب ونظر إلي قائلاً: شو كلكن معلمات؟ (بلهجتة العلوية طبعاً).

فأجابته صديقتي المقرّبة التي كانت تجلس بجانبني وهي تكبرني بالعمر بسنوات عدة وهي سيدة و متزوجة ولديها أبناء: نعم الكل معلمات.

عاود سؤالي: وين بتدرّسوا بأي مدرسة؟

حاولت صديقتي إجابته: مندرّس بـ

لكنه قاطعها قبل أن تكمل موجهها السؤال إلي، وقد ازعجه أنه يسألني فتجيب صديقتي: من وين إنتو؟ وانتي من وين يا انسة؟

أجبتة: من إدلب كلياتنا.

تابع: بتخافي من الرصاص انتي؟

أجبتة: لا.

دخل وبندفيته معه إلى الباص واقترب قليلا مني وقال: رح اضربك رصاص الك.

هنا أحسست ببعض التوتر يتناثري، وقد كانت الأنظار كلها تتجه نحوي من زميلاتي ومن السائق لكنني ضبطلت أعصابي لأوحي له أنني غير مهتمة أو متوترة وعندما رأيته هكذا سحب بندقيته وابتسم لي وقال: عم امزح معك.

لم اجبه بشئ. أغلق الباب وابتعد قليلا عن السيارة وبدأت تعليقات زميلاتي "شوحط عينو عليكى" و "انتهي" و "عطيه كلمة أو تطليعه خلي يمشتينا". لم أتمكن من إجابتهن فقد عاد مجدداً وفتح الباب وهو يبتسم لي ليقول: شو هي يلي بإصبعتك؟ أجبتة: مسبحة

سأل: شو هالمسبحة؟

أجبتة: مسبحة رقمية.

شو يعني رقمية؟ شوفي هيك المسابح اطلعي. وأخرج من جيبه مسبحة ملونة حباتها مصفوفة على شكل علم النظام ذو النجمتين. وطبعاً لم أعقب على كلامه...

عاد وسألني: انتي مع مين؟

فنظرت فيه مستغربة لإبهامه أنني لم أفهم ماقصده، طبعاً ظننت انه سيسألني هل انا مع النظام أم ضده ، فتابع شارحاً سؤاله قائلاً: بالذمة بالضمير وعليكى الأمان بس قوليلي انت مع مين مع جبهة النصره ولا مع داعش؟

لم اجبه وابتسمت من صدمتي من سؤاله فقد جزم بمفرده انني معارضة وضد النظام. وبدأ يقفز كالمجنون ويلج علي بالاجابة وهو يقول: ولك يلعن ابوي اذا بقول لحدا شو رح تحكي قوليلي بس مشان الله بس احكي .

بدأت أحدث نفسي وعشرات الأفكار تدور في رأسي "لماذا يصّر علي كل هذا الاصرار، ماذا سيحدث إن أخبرته بأنني لست مع داعش مطلقاً، ولست مع كل تصرفات النصره، لكنني مع أحرار الشام بقلبي، لان قلبي وروحي يقاتل معهم لكنهم ذئاب لا يؤمن جانبهم، هل

يجب أن أسكت؟ لكنني كلما امتنعت عن الحديث معه ازداد إصرارًا على سؤالني وما قد أوقفنا ما يقارب الساعة من أجل أن يتحدث معي أكثر وماذا يريد مني؟ هل هو مجرد إعجاب أم أن في نيته شيء آخر. كنت أرى الخوف في عيون من حولي من صديقاتي. حتى السائق بدا قلقًا من أسئلته. هل استعمل أسلوب أغلب الناس لكي أتملص منه فأخبره اني مع الجيش السوري وقيادته، وطبعًا هذا مستحيل حتى لو كان كذبًا فلا أستطيع قوله وهل مثلي يكون هكذا ويقول هذا!!

قطع صوته هذه الأفكار في رأسي وهو يقول لمن معي: مو ممكن تعدوا لحتى تجاوبني الانسة.

أشار السائق لي بيده عبر المرآة بحركة خفيفة لجلب انتباهي نحوه دون أن يشعر به العسكري، فنظرت إليه فأشار إلي ان بسبابته نحو الأعلى وشفتهان تتمتان بكلمة "مع الله"، وفهمت انه يقصد أن أجيب العسكري باني مع الله. وفعلا استجبت مباشرة وجاوبت العسكري: أنا مو مع هدول ولا هدول أنا مع الله.

نظر إلي مبتسما وقد أعجبه الجواب وقال: ماشي هرتي من الجواب وبس قلتي الله شومنقدر نقول بقا! طيب فلك سر وما تخبري لحدًا؟

وطبعًا لم ينتظر مني أن أجيبه، اقترب قليلا مني همس: أنا مع داعش وعمزني بعينه غمزة لها اكثر من معنى.

فقاطعه السائق قائلاً: هي جاوبتك الانسة خيلنا نعدّي تأخرنا كثير.

أجابته العسكري وهو ينظر الي: لشو مستعجل والله مستأنسين ومايينشيع منكن.

هنا امتلكني حقا الخوف، قبضت صديقتي على يدي خوفا من إجابته ومن نواياه، ثم طلب منا الهويات، ولم يبرفع نظره عني، فأعطاه السائق الهويات جميعها حيث أننا بمجرد اقترابنا من حواجز النظام يقوم السائق بجمع الهويات لإعطائها للحواجز في حال طلبوها منا. جمع الهويات وقال: شوي ورجعان ماتحركن من عندكن والامام علي بقوسك براسك (مخاطبا السائق) وهو يضحك.

همست في اذن صديقتي بجانبني: شو اعمل؟ انا مو مطمئة زارها كثير.

أجابتي مواسة: بسيطة ان شالله خير الله يخلصنا من ولاد الحرام على اهون سبب.

عاد ومعه الهويات وبدأ بتوزيعها علينا ينادي الاسم ويسلم الهوية لصاحبتها، وطبعًا ترك هويتي للنهاية قرأ إسمي ونظرالي وابتسم وقال: عاشت الاسامي يا أنسة.....

ثم أعطاني الهوية واقترب مني قائلاً: أنا اسمي محمد وحظي حلو اني تعرفت عليك اليوم.

ونظرالي من معي في السيارة وقال: كرمال عيون الانسة وقفناك وإذا بتقلي مشينا بمشيكن.

حشرني بقوله في خانة اليك ماذا عساي أقول؟ أنزل إلى مستواه وأطلب منه أن يسمح لنا بالعبور؟ أم أصمت وبهذه الحالة أطيل فترة وقوفنا أمامه وهذا يستدعي أن يعاود فتح أحاديث جديدة معي، وهوما لم أعد أحتمله أبدًا. موقف لا أحسد عليه أبدا.

وهو ينظرالي بنظرة خبيثة تحتمل عشرات المعاني قررت أن أهني هذه المهزلة باستعمال السياسة فقلت له: يعني نحن اتاخرنا كثير وانتو عندكن شغل.

رد قائلاً: شو هالجواب الدبلوماسي يا انسي انت كثير ذكية، ماشي رح اعتبرو هاد طلب لتمشوا والنا لقاءات تانية يا انسة بالله امشوا؟

وتابع والسائق يشغل سيارته : بكرة عم استناكن الصبح لا تتأخرن.

وأخيرا ابتعدنا عنه وما إن تجاوزنا حاجزهم حتى قال لي السائق: شو هالابن الحرام هاد مارح يحل عنك يا آنسة بالساهل أحسن شي تغيبك كم يوم عن المدرسة.

نظرت إلي هويتي وقد وضع داخل غلافها البلاستيكي ورقة بيضاء، أخرجتها وإذا مكتوب عليها رقم جواله وعبارة "انا محمد وعم استنى اتصالك". أعطيتها لصديقتي كي تقرأها فاتتبه السائق علينا، فهم انه ترك لي رسالة فزاد إصراره علي أن أتغيب عن المدرسة لفترة. فردت عليه إحدى زميلاتي بانه اذا انتظر سيارتنا ولم يجدنئ فيها سيفهم انني تقصدت ان اغيب وربما "بتحطط" على السيارة. وفي النهاية قررنا أن نذهب الى المدرسة من الطريق الشرقي لمدينة إدلب نحو الريف وهو بعيد جداً ومكلف أيضاً، لكي لا نمر على حاجز النظام ولا نرى ذلك العسكري. وبالفعل سلكننا الطريق الجديد لثلاثة أيام. وفي صباح اليوم الثالث كنا انا وصديقتي ننتظرالسيارة للذهاب إلى المدرسة جاءني اتصال على جوالي من رقم غريب، فأجبت على المكالمة وإذا بصوت شاب بلهجة علوية يقول: صباح الخير آنسة شو وينكن ماعم نشوفكن ولا اتصلتي فيني والامام علي اشتقتلك.

صعقت من هول الصدمة من أين حصل على رقمي؟ وكيف؟ وماهو الطريق لاتخلص منه؟ أقفلت الخط بوجهه دون أن أجيبه بأي كلمة وأقفلت الجوال.

أخبرت صديقتي فوراً فاقترحت أن تجيبه هي وتستعمل لهجة حلبية لتوهمه ان الرقم خطأ، بالفعل فتحت الجوال وفورا عاود الاتصال فأجابته صديقتي وأخبرته بانها ليست الانسة ... وانها من حلب وأنه يطلب الرقم الخطأ، حمدا لله اقتنع بهذه الحيلة ثم أعطيتها شريحة الرقم في حال عاود الاتصال ليتأكد، وبالفعل لاحقا اتصل وتأكد من أنني لم اكن المجيبة. انتقلت الصدمة إلى صديقتي من أين حصل على الرقم؟ هل وصل إلى السائق وطلب منه الرقم؟ وإن لم يكن السائق فمن يا ترى؟ بدأنا نفكر ماذا سأفعل لأنخلص منه. عندما وصل السائق سألته بدون ان تسمعتني أي من زميلاتي لكي لا ينسجوا القمص وينتشر الخبر. فأكد لي انه لم يعط رقمي لأي شخص ولم ير ذلك العسكري ولم يمر على حاجزه أبدا، فليس له طريق من هناك إلا معنا واستغرب بدروره من الاتصال.

اضطررنا لسلك الطريق الطويل إلى المدرسة لأسبوعين، وتحمل المشقة الجسدية والمادية وقد تكفلت أنا بالجزء الأكبر من المبلغ لكوني السبب في ذلك. وبعد الأسبوعين اقترح السائق أن أتغيب عن المدرسة ليوم واحد ليعودوا إلى الطريق القديم ويستكشفوا الوضع. وبالفعل ذهبوا ووجدوا أن جميع العناصر علي الحاجز تغيروا، وتأكد السائق وهو يعطي علبه سجانر لأحد العناصر كي يسمح له بالعبور بان عناصر الحاجز اخذوا مؤازرة الى حلب، أي أن الخطر زال على الأقل حالياً. وبهذا عدنا لنسلك نفس الطريق ووحده الله يعلم ماذا يخبئ لنا هذا الطريق من أحداث.

Source URL: <https://iwpr.net/ar/global-voices/%D9%8A%D9%88%D9%85-%D8%B3%D8%A3%D9%84%D9%86%D9%8A-%D8%AD%D8%A7%D8%AC%D8%B2-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A5%D9%86%D8%AA%D9%90-%D9%85%D8%B9-%D9%85%D9%8A%D9%86-%D9%86%D8%B5%D8%B1%D8%A9-%D8%A3%D9%88-%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4>